ملامحُ التنمُّرِ الأولَى في الشِّعرِ العربيِّ - عنترة بن شداد اختيارًا

د. أسيل محمَّد ناصر
الجامعة العراقيَّة / كلية الآداب
aseel.ed345@gmail.com

ملخص البحث

تعدُّ ظاهرة التنمُّر من الظواهر الاجتماعيَّة التي لها جذورٌ تأريخيَّة في متن الشعرِ العربيِّ؛ ولمَّا كانت هذه الظاهرة تأخذُ حيزًا كبيرًا من اشتغال الباحثين في ميدان النقد النفسيِّ والنقد الثقافيِّ اتجهت بوصلةَ البحث صوبَ مناطق وجودها؛ بغية تحليلها، واستنتاج أسبابها، والوقوف على النصوص التي برَّزت ملامحُ الظاهرة بنحو لا يقبلُ الشك، ولا سيما في شعر عنترة بن شداد العبسيِّ؛ لعوامل شتى سيُعملُ على مناقشتها في الصفحات المقبلة من هذه الدراسة .

Abstract

The phenomenon of bullying is a social phenomenon that has historical roots in the body of Arabic poetry. Since this phenomenon takes up a large part of the work of researchers in the field of psychological criticism and cultural criticism, the compass of research turned towards the areas of its presence. In order to analyze it, deduce its causes, and find out the texts in which the features of the phenomenon emerged beyond doubt, especially in the poetry of Antara Ibn Shaddad Al-Absi; Due to various factors that will be discussed in the coming pages of this study.

المُقَدّمة:

إنَّ الاتجاهات البحثيَّة المُعاصرة أخذت مساحة التفكير العلميِّ صَوبَ المناطق التي بدأت تستحوذ على اهتمامات المجتمع واتجاهاته المختلفة، ويعدُّ التنمُّر إحدى تلك الظواهر التي بدأت تستفحلُ، وتستعصي على العلاج، والسؤال هنا يكمن، هل إنَّ ظاهرة التنمُّر وليدة هذا اليوم؟ أو هي نتاجٌ موجودٌ بوجود البشريَّة وإن تغيَّر المُسمَّى؛ وعلى هدي ذلك اتجهت رؤية البحث نحو منطقة تتوافرُ على وجود هذه الظاهرة؛ لتؤشر مديات ظهورها، ومساحة انتشارها، وآليات التعاطي معها، وبما أنَّها مرتبطة بثقافة المجتمعات؛ لذلك ينبغي دراستها بمستويين متوازيين في الآن نفسه أحدهما ثقافيٌّ، والآخر نفسيٌّ؛ بغية تحليل مجساتِها، ونتائجها، واستنطاق النصوص التي تحكي انطلاقاتها؛ لتكون بوابةً أولى للدخول إلى عوالم الظواهر الأخرى، وتعريف ماهياتها، ومآلات ما أحدثته، وما يمكن أن تحدثه على المتن البحثي بنحو عام، والإبداعي منه بنحو خاص، فإن رافق البحث التوفيق فذلك من عند الله، وإن لم يوفق فحسب من اجتهدَ أنهُ سلكَ سبيلَ المُجددين.

"رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ"

المهاد النظريُّ

مَفهُوم التَنمُّر (**bullying**):

اقترن مفهوم التَنمُّر مع وجود السلوك الإنسانيّ، وتوجيه أدواته، ولا يمكن أن يظهر مالم تكن هناك دوافع نفسيَّة تدفع لظهوره سواءً أكانت ظاهرةً أم خافية، وتكون الغاية من التنمُّر هي إثارة أو تأجيج صراع داخليّ نفسيّ، وتحويله إلى سلوكٍ عدوانيّ بإزاء الآخرين، وهو موجود مع وجود البشريَّة لكن باختلاف المُسمَّى، ويمكن القولُ إنَّهُ: (ظاهرة عامة يمارسها الأفراد بأساليب متنوعة ومتعددة، وهو موجود لدى أفراد الجنس البشريّ بأشكالٍ مختلفة وبدرجاتٍ متفاوتة، ويظهر عندما تتوافر له الظروف الخاصة)[١] ، وإذا ما نُظر لهذا الموضوع بعين ناقدة مُعاصرة، فتكون الرؤية متجهة نحو وصفِ هذه الظاهرة على أنَّها ثقافةٌ عامة أخذت مأخذها في شتى جوانب الحياة، والشعرُ واحدٌ من هذه الفنون التي أعطت للقارئ انطباعًا واضحًا عن الظواهر التي خلفتها في حياة البشريَّة، والحروب التي تسببت بها، ومن تلك الحروب التي أسهمت في نشوبها (حرب البسوس) التي حدثت نتيجة استهزاء وتنمُّر (كُليب) على(جسَّاس) بأنَّهُ غيرُ قادرٍ على حمايةِ ضيفته، والنظر له باستصغار، والتنمُّر عليه بأنَّهُ جبان، وقد آل الأمر إلى قيام جسَّاسٍ بقتلِ كُليبٍ؛ الأمر الذي أدَّى إلى اشتعال حرب البسوس[٢]، وما قصةُ رفض تزويج الشاعر السمؤال بن عاديا الغساني ببعيدةٍ عن ظاهرة التنمُّر ومغزاها، وهو يقول : [٣]

إذا المَرءُ لَم يُدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُهُ فَكُـلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَمـــيلُ

وَإن هُوَ لَم يَحمِل عَلى النَفسِ ضَيمَها فَلَيسَ إلى حُسنِ الثَناءِ سَبيلُ

تُعَــيِّرُنا أَنّا قَلـــــيلٌ عَـــــــديدُنا فَــقُـلتُ لَها إنَّ الكِرامَ قَليلُ

وهذا الأمرُ حدا بالسمؤال إلى تحويل مساحة التنمُّر ضده إلى مساحةٍ للفخر والشموخ، والكبرياء كما ورد في قوله:

وَما قَلَّ مَن كانَت بَقاياهُ مِــثلَنا شَبابٌ تَسامى لِلعُلى وَكُهولُ

وَما ضَرَّنا أَنّا قَليلٌ وَجـــارُنا عَـزيزٌ وَجـارُ الأَكثَرينَ ذَليلُ

والأمر الذي لا فرار منه هو الأثر النفسيُّ الذي خلفه التنمُّر في نفسية الشاعر، وجعله يتحصنُ بصفات لها مغزى كبير في نفوس العرب، وهذا الأمر هو الآخر أصبح ثقافةً يأوي إليها الشاعر؛ بغية تخفيف حدة السطوة التنمريَّة على ذاته، وهذه الموضوعة تثبتها ذاكرة النصِّ الذي شكَّل وثيقةً رسميَّةً واضحة، لها مداليلُها على وجود ثقافة التنمُّر ومقاومتها داخل بنية النصِّ، والاحتماء من أثرها بالجمالِ، والإشراقِ، والبهاء، وفي سياق ذلك يقول الدكتور عبدالله الغذامي: (ولا ريب أنَّ النقدَ النصوصيَّ بمفهوماتهِ الأساسيَّة يساعدُ على تجليةِ الأمرِ، وتوجيه البحث، خاصة ما يتعلق منه بمبدأ [تفسير الشعر بالشعر] وهو مبدأ يؤسسُ لعضويةِ الفعلِ الشعريّ، ويؤكدُ جسديَّة النصِّ بمعنى حيويتهِ وتفاعلهِ الداخليّ)[٤] ، وهذا ما يفسِّرُ حالة الرصدِ النقديّ من داخل النصوصِ واستنتاجاتِها؛ ونتيجة لتوافر معطيات ذلك في شعر عنترة يمكن عبرَ ذلك رسم خطٍّ شروع للمباشرة في استقصاء ظاهرة التنمُّر، وتتبع أثرها في شعره عبر النقدِ النصوصيّ لأنساق ثلاثة (نسق التنمُّرِ القبليّ، نسق التنمُّر العُنصريّ، نسق التنمُّر الارتداديّ) وسيأتي البحث على دراستها .

المبحث الأول: نسق التنمُّر القبليّ (**Pattern of tribal bullying**):

النسقُ هو بحثٌ في البناء النصِّي، وما ينطوي عليه من مضمون، وما يكتنفه من أسرار يمكنُ عبرَها استكشاف المضمرات التي تبوحُ بالمقاصد وتبعاتها، وبعبارة أخرى هو(ما يتولدُ عن حركة العلاقة بين العناصر المكونة للبنية إلاَّ أنَّ لهذه الحركة نظامًا معينًا يمكن ملاحظته وكشفه)[٥] ، وهذا الأمر يتطلبُ وعيًا وثقافةً متميزين من شأنهما تحويل ما كان يُعتقد أنَّهُ هامشٌ إلى متنٍ حقيقي تنضوي تحتَ متنهِ حياة نصوصيَّة مضمرة داخل عوالم نسقيته التي يكتشفها الحراك القرائيُّ من طريق ملاحقة نظام التوالد في بنية النصِّ وتفكيكه.

إنَّ المتتبعَ لخطابِ عنترة الشعريّ سيلمحُ في الوهلةِ الأولى وجعًا أوليًا، يستتبعهُ مرارٌ أزليٌّ، ومردُّ ذلك يعودُ إلى المجتمع القبليّ وطبيعتهِ التي جعلت من سلطتها حاكمة وقارَّة ومشرّعة، مع أنَّها لا تحتكم لمعايير موضوعيَّة، واعتقادات متأصلّة تفرضها على جميع من يخضع لسلطتها، وإنَّما أخذت الذاتُ مأخذها في بنية ذلك المجتمع وتكوينه، فهي تنعمُ عليه بالألقاب متى ما شاءت، وتنزعها عنه بانتفاء مقتضى المصلحة، وهذا الأمر خلق حالةً من التناقض في الفعل السلوكي لأفرادها، وفي ذلك استكشاف لنسقية ضيق ساحة الشعور التي عبر عنها الدكتور سامي الدروبي بقوله:(إنَّ ضيقَ ساحة الشعور يركِّزُ الفكرَ على شيء بعينهِ مستقلٍ عن غيرهِ، ولا شكَّ أنَّ هذا يُسهّل ملاحظة الشيء بدقة، ويسهّلُ تحليله)[٦] ؛ لذلك من الملاحظ أنَّ عنترة استغرقَ في إظهارِ مديات التنمُّر ووحشيته في نفسهِ، ولاسيما وهو منتزعُ النسبِ من القبيلة تارةً، وملتصقٌ بها تارةً أخرى بحسبِ ميول القبيلة واتجاهاتِها معه، وفي ذلك يقول : [٧]

أُعاتِبُ دَهراً لا يَلينُ لِعــاتِبِ ... وَأَطلُبُ أَمناً مِن صُروفِ النَوائِبِ

وَتوعِدُني الأَيّامُ وَعداً تَغُرُّني ... وَأَعلَــمُ حَــقّاً أَنَّـهُ وَعــدُ كــاذِبِ

خَدَمتُ أُناساً وَاِتَّخَذتُ أَقارِباً ... لِعَوني وَلَكِن أَصبَحوا كَالعَقــارِبِ

يُنادونَني في السِّلمِ يا اِبنَ زَبيبَةٍ ... وَعِندَ صِدامِ الخَيلِ يا اِبنَ الأَطايِبِ

وَلَولا الهَوى ما ذَلَّ مِثلي لِمِثلِهِم ... وَلا خَضَعَت أُسدُ الفَــلا لِلثَعالِبِ

سَيَذكُرُني قَومي إِذا الخَيلُ أَصبَحَت ... تَجولُ بِها الفُرسانُ بَينَ المَضارِبِ

فَإِن هُم نَسوني فَالصَوارِمُ وَالقَنا ... تُذَكِّرُهُم فِعلــي وَوَقعَ مَضــارِبي

فَيا لَيتَ أَنَّ الدَهرَ يُدني أَحِبَّتي ... إِلَيَّ كَما يُدني إِلَيَّ مَصائِبي

وَلَيتَ خَيالاً مِنكِ يا عَبلَ طارِقاً ... يَرى فَيضَ جَفني بِالدُموعِ السَواكِبِ

سَأَصبِرُ حَتّى تَطَّرِحني عَواذِلي ... وَحَتّى يَضِجَّ الصَبرُ بَينَ جَوانِبي

مَقامُكِ في جَوِّ السَماءِ مَكانُهُ ... وَباعي قَصيرٌ عَن نَوالِ الكَواكِبِ

بدا الشاعرُ كأنَّهُ في لحظةِ عتابٍ مع قومهِ الذي لا يحفظون لهُ مقامه، ولا يقيمون له وزنًا إلاَّ عند الحاجة، لكنَّ ما باحت بهِ الأنساقُ المضمرَّة يتجاوزُ حدودَ هذا الفهم السطحيّ إلى معنى أعمق من هذا بكثير، فالنصُّ يحملُ بين جنباته إيحاءً بالمرارة، وإيماءً بمدى الصبر، وإشارةً إلى عمق الأذى الذي طالهُ من أناسٍ لا يستحقون المكانةَ الرفيعة، والإشعارِ المَهيب، والمقام السامي؛ لأنَّهُ لا يبالي بحسبه ونسبه إليهم، وإنمَّا الهمُّ الأول هو حبُّه لعبلة، ولولا هذا الحُبُّ ما كانَ ليخضع لهم أو ينتسب إليهم، وهو في ذلكَ يعرّجُ على موضوعٍ ثقافيٍّ لهُ مداه في منظومة النقد؛ لأنَّ (الثقافة تتخذُ لنفسِهَا صورًا واعدة، وأهمُّ هذه الصور هو ما تختزنه الصورُ والحكاياتُ من رمزيات معنويَّة وقيميَّة، وليست مقولة " الحَسَب والنَسَب " إلاَّ عبارة من هذه العبارات الرمزيَّة، وحينما تسودُ مقولة الحسب والنسب... فإنَّـها تحمِلُ في طياتِها شحنةً ثقافيةً عالية الكثافة)[٨] مثَّلت خطَّ شروعٍ انطلق منه الشاعر للتعبير عمَّا أضمرهُ الشاعر تحت مظلَّة الانتماء القبليّ المنقوص، ومكمنُ النقصِ فيه هو أن الإنعام به على الشاعر ليس ثابتًا، وإنمَّا يتغيرُ مع التحولات الزمانيَّة والمكانيَّة؛ لتتبدى في متن النصّ إماراتُ التنمُّر بوضوح غير قابلٍ للالتباس بمناداتهِ باسم أمِّهِ " زبيبة " في لحظات التحرر من ضيقِ العدوان، والزهد بمن يدفع الأذى، وتعدَّى حدود ذلك إلى الإساءة إليهِ، ونزعِ حُلي المفاخر عنه؛ ليبرز فعلُ التنمُّر بألفاظ عدائيَّة أخذت مأخذها في نفسِ الشاعرِ، وأسهمت في تحجيم همتهِ، وهو نوعٌ مباشر من الثقافة الطاردة التي تمارسُ فعلاً سلوكيًا يتعارضُ مع القيمة البشريَّة، ولا ينسجم مع الصفات الإنسانيَّة؛ ليقودَ بالنتيجة إلى ردَّةِ فعلٍ يسلكها الشاعرُ في الردِّ على المتنمرين؛ ولكنَّ أثر ردَّة الفعل لا يمكن أن يُقارن مع انطلاق الشرارات الأولى للتنمُّر.

المبحث الثاني: نسقُ التنمُّر العنصريُّ (Pattern of Racist Bullying):

أصبح من الضرورة بمكان القول: إنَّ المفهوم العام السائد بشأن تعريف الثقافة على أنَّها معرفة شيءٍ عن كلِّ شيء مفهومٌ قاصرٌ عن بلوغ مدياتها؛ لأنَّ الثقافة هي الشيوع في الممارسة، فمن الممكن أن تأخذ جانبًا إيجابيًا وآخر سلبيًا؛ فكلُّ ما يشيعهُ المجتمع سيغدو ثقافةً عبر الممارسة الفعليَّة، بمعنى أنَّها ـ الثقافة ـ (تتحكمُ بالفردِ والجماعة المؤمنينَ بها، وفي الوقت نفسه يمكن أن يتحكَّم المحكومون بها من أفرادٍ وجماعاتٍ، بحيث يمكنُهم تعديل بعضِ مفرداتِها أو مقولاتِها أو أنظمتها إن استشعروا خطورتَها، أو مخالفتها للمشتركِ الأخلاقيّ الإنسانيّ العام)[٩] ، والعنصريَّةُ؛ أسلوبٌ من أساليب التعامل البشريّ السلبيّ التي غدتْ ثقافةً شائعة في معظم المجتمعات الإنسانيَّة؛ نتيجةً لكثرة التعاملِ بها؛ وبغية استيضاح ذلك فقد وردت إيماءات إليها في أشعار العرب إلى الدرجة التي حولَّتها إلى تنمُّر قاسٍ ألحقَ أبلغ الضرر بمن طالهم، ولم يكن عنترة خارجًا عن دائرة شرارِها التي أكتوى بها قلبهُ، وألحقَ به الأذى، ونالهُ الوهنُ؛ نتيجةً للعزلِ المجتمعيّ، وإشعارهِ بعدم الانتماء، وهذا شعورٌ عنصريٌّ من شأنهِ تقويضِ قيم الانتماء، والشُعور بالغُربةِ الرُوحيَّة، والاغترابِ القسريّ، وهذا الأمر يُدخلهُ في خانة الشعور بـ(التنمُّر الانفعاليّ Emotional bullying) الذي يعدُّ نوعًا من العزلِ، والإبعاد، والازدراء بهدف تقليل الشأن، وإبعاد الشخص المعني من الاقتران بمجتمعه[١٠]؛ الأمر الذي يقودهُ إلى الاحتماء بالمفاخرِ، والتمترسِ وراء الفضائل، والاختباء وراء الإرث الحَسَن، ولاستيضاح هذه الظاهرة بوضوح يمكن الوقوف عند نصِّ عنترة الذي يقول فيه : [١١]

يا عَبلَ قَد هامَ الفُؤادُ بِذِكرِكُم وَأَرى دُيوني ما يَحُلُّ قَضاها

يا عَبلَ إِن تَبكي عَلَيَّ بِحُرقَةٍ فَلَطالَما بَكَتِ الرِجالُ نِساها

يا عَبلَ إنّي في الكَريهَةِ ضَيغَمٌ شَرِسٌ إذا ما الطَعنُ شَقَّ جِبَاها

وَدَنَت كِباشٌ مِن كِباشٍ تَصطَلي نارَ الكَريهَةِ أَو تَخوضُ لَظاها

وَدَنا الشُجاعُ مِنَ الشُجاع وَأُشرِعَت سُمرُ الرِماح عَلى اِختِلافِ قَناها

فَهُناكَ أَطعَنُ في الوَغى فُرسانَها طَعناً يَشُقُّ قُلوبَها وَكُلاها

وَسَلي الفَوارِسَ يُخبِروكِ بِهِمَّتي وَمَواقِفي في الحَربِ حينَ أَطاها

وَأَزيدُها مِن نارِ حَربي شُعلَةً وَأُثيرُها حَتّى تَدورَ رَحاها

وَأَكُرُّ فيهِم في لَهيبِ شُعاعِها وَأَكُونُ أَوَّلَ واقِدٍ بِصَلاها

وَأَكونُ أَوَّلَ ضارِبٍ بِمُهَنَّدٍ يَفري الجَماجِمَ لا يُريدُ سِواها

وَأَكونُ أَوَّلَ فارِسٍ يَغشى الوَغى فَأَقودُ أَوَّلَ فارِسٍ يَغشاها

وَالخَيلُ تَعلَمُ وَالفَوارِسُ أَنَّني شَيخُ الحُروبِ وَكَهلُها وَفَتاها

يا عَبلَ كَم مِن فارِسٍ خَلَّيتَهُ في وَسطِ رابِيَةٍ يَعُدُّ حَصَاها

يا عَبلَ كَم مِن حُرَّةٍ خَلَّيتُها تَبكي وَتَنعى بَعلَها وَأَخاها

يا عَبلَ كَم مِن مُهرَةٍ غادَرتُها مِن بَعدِ صاحِبِها تَجُرُّ خُطاها

يا عَبلَ لَو أَنّي لَقيتُ كَتيبَةً سَبعينَ أَلفاً ما رَهِبتُ لِقاها

وَأَنا المَنِيَّةُ وَابنُ كُلِّ مَنِيَّةٍ وَسَوادُ جِلدِي ثَوبُها وَرِداها

انطلقَ الشاعرُ في التعبيرِ عن ماهيتهِ الخطابيَّةِ بطريقةٍ تنبئ على أنَّهُ يتفاخرُ بشجاعته وصولاتهِ، وما قام به من فعاليات قتاليَّة حين تصاعدَ وطيسِ المعركة؛ ولكنَّ الحقيقة هو كان هاربًا من هولِ التنمُّر، وما يلقاهُ من تبعاتهِ، وما البيت الأخير من هذا النصّ إلاَّ ردةُ فعلٍ على واقعٍ ثقافيٍّ مجتمعيٍّ مؤلمٍ يُسوّقُ للعنصريَّةِ، ويتخذها وسيلةً ناجعةً للإيقاعِ؛ بوصفِ الثقافةِ (مجموعة من السُنَن التي توجّهُ حركةِ المجتمع، فهي تُعدُّ مجالاً للتنظيم)[١٢] ، وهذا المجالُ يمكنهُ أن يكوّن ظواهرَ تنعكسُ أفعالَها على النشاطِ البشري نفسيًا، واجتماعيًا، فضلاً عن تأثيراتها العضويَّة على مجملِ النشاطِ الحركيّ للعقلِ الجمعيّ الذي يعملُ على إدامةِ حركة الظواهر وتنميتها وشيوعها؛ ليُسجلَ ذلك أثرهُ عبر البُعد الخطابيّ الذي يثورهُ الشاعر في متنهِ النصيّ، وما تقصُّد الشاعر على ذكر (سوادِ جلده) إلا مصداقًا لتلك الرؤية الجاعلة من الشاعرِ محتميًا بمفاخرهِ، وصولاتهِ، وشجاعتهِ من خلالِ اللغة بوصفها؛ نظامًا إشاريًا تقفُ في ذهنية الشاعرِ من حيثُ كونها دالاً يثيرُ في الذهنِ مدلولاً يُستطيعُ القارىء اقتناصهُ مضمونيًا عبر الحركة اللغوية الباعثة للإرهاص النفسيّ، واللون العنصريّ [١٣] بعدَ سلسلةٍ طويلة من المفاخر امتدت في حركة النسيجِ النصيّ؛ لتقودَ في

نهاية مطافِها إلى الإحساسِ بالتنمُّر العنصريّ الذي يحولُ بين الشاعر وانتمائهِ من عدمهِ؛ لأنَّ الإحساسَ بالسُخريَّة، والاستهزاء، وعدم الاكتراث يجعل من الإنسان منطويًا على ذاتهِ، ومتقوقعًا داخلها؛ محاولاً الانفلات من ربقتها عبر الاحتماء بالمفاخرِ والفروسيَّة والمكابرة؛ وهذا ما يستكشفهُ السياقُ العاطفيُّ (الذي يتولَّى الكشفَ عن المعنى في الوجدانِ، ويُحدِّد درجةَ القوةِ والضعفِ في الانفعال؛ تأكيدًا أو مبالغةً أو اعتدالا)[١٤] ، وما كانَ لذلك أن يحدثَ لولا أنَّ مساحةَ التنمُّر أخذت مأخذها من نفسِ الشاعر؛ لتجعلَ من ردَّة فعلهِ قلعةً تتخفى بين حصونها المآثرُ والمفاخرُ التي اتخذها الشاعر وسيلةً ناجعةً لمواجهة التنمُّر، فالتنمُّر بحسب العالم النفسيّ (سميث SMITH) هو الغطرسة والازدراء والاحتقار[١٥]، وتوجيه الإهانات للشخص المتنمَّر عليه؛ الأمر الذي يُحدث فيه اضطرابًا في السلوك، وألمًا في القلب، وشعورًا قاسيًا بالضعةِ والانكسار ودنو المقام .

المبحثُ الثالثُ: نسقُ التنمُّر الارتداديّ pattern (Rebound bullying):

إنَّ التنمُّر؛ بوصفهِ أداةً لتحطيمِ الذاتِ للمتنمَّرِ عليهِ لا تخلو من أبعادٍ قصديَّة في إلحاقِ الأذى بالآخرين؛ لأنَّ (شخصية المتنمّر شخصيةٌ غير سويَّة قد مرَّت بظروفٍ ومواقف قاسيَّة ... فأفقدتها توازنها وثباتها وجعلتها تتخبط وتتنمُّر على من حولها)[١٦] بدافع التأثيرِ على نفسيتها، وإشعارها بالنقص الدائم، وإفقادها الثقة بنفسِها، وربمَّا ذلك لم يكن مصرَّحًا به من عنترة الشاعر بنحوٍ مباشر؛ لكن باستطاعة من يتعمق بإحساسِ الشاعر رصد ذلك بطريقةٍ ذكيَّة جعلت من الشاعرِ رادًا على تنمرهم بتنمُّرٍ آخر؛ وهذا ما أحدثه صدى التنمُّر الأول وفي ذلك يقول :[١٧]

إن كُنتَ في عَدَدِ العَبيدِ فَهِمَّتي ... فَوقَ الثُرَيّا وَالسِماكِ الأَعـزَلِ

أَو أَنكَرَت فُرسانُ عَبسٍ نِسبَتي ... فَسِنانُ رُمحي وَالحُسامُ يُقِرُّ لي

وَبِذابِلي وَمُهَنَّدي نِلتُ العُـــلا ... لا بِالقَرابَةِ وَالعَـديدِ الأَجـــزَلِ

وَرَمَيتُ مُهري في العَجاج فَخاضَهُ ... وَالنارُ تَقدَحُ مِن شِفارِ الأَنصُلِ

وَأَنا اِبنُ سَوداءِ الجَبينِ كَأَنَّها ... ضَبُعٌ تَرَعرَعَ في رُسومِ المَنزِلِ

الساقُ مِنها مِثلُ ساقِ نَعامَـــةٍ ... وَالشَعـرُ مِنها مِـثلُ حَبِّ الفُلفُلِ

وَالثَغرُ مِن تَحـتِ اللِـثامِ كَأَنَّهُ ... بَرقٌ تَلَألَأَ في الظَـلامِ المُسدَلِ

يا نازِلـينَ عَلى الحِمَـى وَدِيارِهِ ... هَلّا رَأَيـتُم في الـدِيارِ تَقَلقُـلي

قَد طالَ عِزُّكُم وَذُلّي في الهَوى ... وَمِـنَ العَجـائِبِ عِـزُّكُم وَتَذَلُّلي

لا تَسقِـني ماءَ الحَـياةِ بِذِلَّـةٍ ... بَل فَاسقِني بِالعِزِّ كَأسَ الحَنظَلِ

ماءُ الحَـياةِ بِذِلَّـةٍ كَجَهَـنَّمٍ ... وَجَهَنَّمٌ بِالعِزِّ أَطيَبُ مَـنـزِلِ

الشاعرُ هُنا يقفُ موقفًا حازمًا وشديدًا بإزاء ثقافةٍ مجتمعيَّةٍ تهمّشُ الآخر؛ فكانت بمثابةِ صرخة احتجاج على ذلك المجتمع الذي ينكر نسبهُ وانتماءهُ إليهِ (ومن هُنا فإنَّ الممارسة الفعليَّة للتحليل ستكشفُ عن أنظمةٍ عقليَّة ولا عقليَّة ذات سمات متضاربة كأن تبدو متماسكة ومفككة في الوقتِ ذاته)[١٨]؛ مما يعني أنَّ هناكَ اضطرابًا نفسيًا خلَّفَهُ التنمُّر في رؤية الشاعر، ومكامنهِ جعلَ من الفعلِ القرائيّ يأخذُ أبعادًا قلقةً وغير مستقرة تتراوحُ بين روحِ الانتماء من عدمهِ تارةً، والاحتماء من التنمُّر بواجهاتِ البطولة والعزمِ والشدَّة تارةً أخرى؛ وهذا الفعلُ يفضي إلى نتائجَ غير مقطوعٍ بها، ولكن ما يؤشرُ على الجزم هو إيراد الشاعرِ الدائم إلى سواد أمّهِ، وسواد جلدهِ، اللذين قاداهُ إلى أن يقوم هو بفعلِ الارتداد عن القبيلة، والتنمُّر عليها عبر مقالةٍ بأنه لا يقيم لقومهِ وزنًا، وإنَّ ما نالهُ هو صنيعة بطولتهِ، وعزمهِ، وشجاعتهِ وليس منَّةً منهم عليه، وإنَّها لكبيرةٌ لمثلهِم أن يزدانوا بعزّهم، وهو يبقى أسيرًا لقهرهِ وذُلّهِ، فُهنا القارئ (مطالبٌ بأن يقرأ باطنِ النصِّ مثلمَّا يقرأ ظاهرَهُ؛ وذلك كي يتمكَّن من تخيُّلهِ ومن ثمَّ تفسيره تفسيرًا سيميولوجيًا إبداعيًا)[١٩] ؛ ليكون إبداعُ القراءة موازيًا لإبداع الإنتاج، وهذا الأمرُ يتطلبُ بحثًا في حركةِ النصِّ وتناميهِ، والحدود التي يمكن أن يبلغها مداهُ، وهذا يعني أنَّ اللغة بحمولتِها الفكريَّة وتداخلاتها مع ما يحيطُ بها يمكن أن تخلقَ تفاعلاً مستمرًا، وتشعباتٍ تُديم ألقَ القراءة وتشظياتها بحسب ما ذهبَ إليهِ الدكتور محمد مفتاح[٢٠]، وهذا ما فعلهُ عنترة في التعبير عن رفضهِ، وعدم اكتراثهِ لما يشيعهُ عنه قومهُ والآخرون؛ ليقوم بمحاولةٍ انقلابيَّة تُعيدُ التنمُّر لأصحابهِ، ويُعيدُ التوازنَ لنفسهِ؛ ولكن بعد كلِّ هذا الصنيعِ تبقى محاولتهِ لسترِ نفسهِ من آثار التنمُّر مكشوفةً، وواهيَّة، وإن تظاهرَ بعدم الاكتراث، أو الاحتماء بالمفاخر، أو ردِّ التنمُّر على من قام بهذا الفعل.

الخاتمة ونتائج البحث

بعدَ القيامِ باستعراضِ الأنساق التي يمكن دراستُها في شعرِ عنترة خلُصَ البحث إلى الآتي :

١.تأكيد وجود الملامح الأولى لظاهرة التنمُّر في شعر عنترة بن شداد أخذت مأخذها في نتاجه النصيّ .

٢. إمكانية تطبيق النظريات السلوكيَّة المُعاصرة على الشعرِ القديم .

٣. إن توجه العقل البشري ودوافعه النفسيَّة تسير على وتيرةٍ واحدة وباختلاف العصور وزمكانية الموقف مع اختلاف المسميات اللغويَّة وتداول مفهومها .

٤.إن مفهوم التنمر حديث التداول والاستعمال إلا انَّ جذوره التأريخية تمتد الى العصر الجاهلي أو ابعد من ذلك بقليل، وهذا ما يدعونا الى معالجة المواقف السلبية والابتعاد عن(تقليل الشأن) بمسمياته كافة.

٥.بلوغُ التنمُّر القبليّ أعلى درجاتهِ في شعرِ عنترة؛ وهذا الأمر الذي ولدَّ إحباطًا، وانكسارًا وشعورًا بعدمِ الانتماء.

٦.شكل التمايز اللوني(السواد) لدى عنترة ظاهرةً بارزةً تمخَّض عنها شعورٌ عالٍ بالتنمُّر من الآخرين بإزائهِ بدوافع عنصريَّة خالصة .

٧.ظهور نمط شعريٍّ ارتداديٍّ لدى عنترة قادهُ فعلُ التنمُّر، وأسهمت في تغذيتهِ السلوكيات المعاديَّة؛ مما دفعه إلى الاعتداد والفخر بنفسه؛ احتماءً من سهام التنمُّر، ولكن مع ذلك بقيَ إخفاء أمر الشعور بالانكسار عصيًا عليه .

٨. انعكاس الثقافات بمسمياتها المختلفة على نمط سلوكِ أفرادها وبطرائق شتى، وما يخص منها الثقافة الجاهليَّة أنَّها كانت ثقافة طبقيَّة تعتمد صفة العبيد والموالي، والأشراف ويتفاضلون على المكانة بحسب ما يقتضيه هذا التصنيف.

والأملُ يحدو النفوس في أن تكون الدراسةُ استوفت ما عليها، ومن الله التوفيق والسداد .

هوامش البحث :

[١] سايكولوجية التنمر (بين النظرية والعلاج)، د. مسعد نجاح أبو الديار، مكتبة الكويت الوطنية، الكويت، ط١ ، ٢٠١٢م : ١٦ .

[٢] يُنظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ: ٦ / ٧٠.

[٣] ديوان السمؤال، تحقيق وشرح: د. واضح الصمد، دار الجيل، بيروت، ط١ ، ١٩٩٦م: ٦٦ وما بعدها .

[٤] القصيدة والنصُّ المُضاد، د. عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربيِّ، بيروت، ط١، ١٩٩٤م: ١٣ . ١٤ .

[٥] المصطلحات الأساسيَّة في لسانيات النصِّ وتحليل الخطاب، د.نعمان بوقرة، عالم الكتاب الحديث، عمَّان/ الأردن، ط١، ٢٠٠٩: ١٤٠ . ١٤١.

[٦] علم النفس والأدب، د.سامي الدروبي، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨١م : ١٦٠.

[٧] ديوان عنترة، اعتنى به وشرحه، حمدو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م: ٨٠ . ٨١ .

[٨] القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، د. عبدالله الغذاميُّ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م: ١٥ .

[٩] الأمن الثقافي، د. مشتاق عبَّاس معن، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، بغداد،ط١، ٢٠١٣م: ١٠.

[١٠] يُنظر : ظاهرة التنمر في ضوء المقاربات النظريَّة المفسرة لها (نحو قراءة تحليليَّة تكامليَّة)، د. غنية عبيب، مجلة البحوث التربويَّة والتعليميَّة، الجزائر، المجلد (١١)، العدد (٢)، ٢٠٢٢م (دوريات) : ٦٢٩.

[١١] ديوان عنترة : ١٨٧ وما بعدها .

[١٢] سيمياء الخطاب الشعريِّ عند حسين القاصد، أسعد كاظم حمد، منشورات تأويل للنشر والترجمة، بغداد، ط١، ٢٠٢٢م: ٦٠ .

[١٣] يُنظر: تشريح النصِّ، عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م: ١٧ .

[١٤] الاستلزام الحواريُّ في المناظرةِ الإسلاميَّة، وفاء عبد المنعم جواد، دار كنوز المعرفة للنشرِ والتوزيع، عمَّان . الأردن، ط١، ٢٠٢٣م: ١٥٤ .

[١٥] يُنظر: سايكولوجية التنمر (بين النظرية والعلاج): ٣١ .

[١٦] التنمر في شعر ابن منير الطرابلسي (٤٧٣ . ٥٤٨ هـ) دراسة نقديَّة في مرآة المنهج الاجتماعي، د. فاطمة محمد قطب محمد، جامعة الأزهر / كلية اللغة العربيَّة / المجلة العلميَّة، العدد ٣٥، الإصدار ٢، ٢٠٢٢م: ١٠٩٨.

[١٧] ديوان عنترة : ١٥٦ وما بعدها .

[١٨] النقد الثقافيُّ (قراءة في الأنساق الثقافية العربيَّة)، د.عبدالله الغذامي، المركز الثقافيُّ العربيُّ، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م:٣٣ .

[١٩] الخطيئة والتكفير (من البنيويَّة إلى التشريحيَّة، نظريَّة وتطبيق)، عبدالله محمد الغذامي، المركز الثقافيُّ العربيُّ، بيروت، ط٧، ٢٠١٢م:٤٧ .

[٢٠] يُنظر: ديناميَّة النصّ (تنظيرًا وإيجازًا)،د. محمد مفتاح، المركز الثقافيُّ العربيُّ، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م: ٢٤ . ٢٥.

المصادر والمراجع والدوريات :

- الاستلزام الحواريُّ في المناظرةِ الإسلاميَّة، وفاء عبد المنعم جواد، دار كنوز المعرفة للنشرِ والتوزيع، عمَّان ـ الأردن، ط١، ٢٠٢٣م .
- الأمن الثقافي، د. مشتاق عبَّاس معن، دار الفراهيدي للنشر والتوزيع، بغداد،ط١، ٢٠١٣م.
- تشريح النصِّ، عبدالله الغذاميُّ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م .
- التنمر في شعرابن منير الطرابلسي (٤٧٣ ـ ٥٤٨ هـ) دراسة نقديَّة في مرآة المنهج الاجتماعي، د. فاطمة محمد قطب محمد، جامعة الأزهر / كلية اللغة العربيَّة / المجلة العلميَّة، العدد ٣٥، الإصدار ٢، ٢٠٢٢م.
- الخطيئة والتكفير (من البنيويَّة إلى التشريحيَّة، نظريَّة وتطبيق)، عبدالله محمد الغذامي، المركز الثقافيُّ العربيُّ، بيروت، ط٧، ٢٠١٢م.
- ديناميَّة النصِّ (تنظيرًا وإيجازًا)،د. محمد مفتاح، المركز الثقافيُّ العربيُّ، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.
- ديوان السمؤال، تحقيق وشرح: د. واضح الصمد، دار الجيل، بيروت، ط١ ، ١٩٩٦م: .
- ديوان عنترة، اعتنى به وشرحه، حمدو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م .
- سايكولوجية التنمر (بين النظرية والعلاج)، د. مسعد نجاح أبو الديار، مكتبة الكويت الوطنية، الكويت، ط١ ، ٢٠١٢م .

- سيمياء الخطاب الشعريِّ عند حسين القاصد، أسعد كاظم حمد، منشورات تأويل للنشر والترجمة، بغداد، ط١، ٢٠٢٢م .
- ظاهرة التنمر في ضوء المقاربات النظريَّة المفسرة لها (نحو قراءة تحليليَّة تكامليَّة)، د. غنية عبيب، مجلة البحوث التربويَّة والتعليميَّة، الجزائر، المجلد (١١)، العدد (٢)، ٢٠٢٢م (دوريات).
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ٧٠.
- علم النفس والأدب، د.سامي الدروبي، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨١م.
- القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، د. عبدالله الغذاميُّ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٩م.
- القصيدة والنصُّ المُضاد، د. عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربيِّ، بيروت، ط١، ١٩٩٤م .
- المصطلحات الأساسيَّة في لسانيات النصِّ وتحليل الخطاب، د.نعمان بوقرة، عالم الكتاب الحديث، عمَّان/ الأردن، ط١، ٢٠٠٩.
- النقد الثقافيُّ (قراءة في الأنساق الثقافية العربيَّة)، د.عبدالله الغذامي، المركز الثقافيُّ العربيُّ، بيروت، ط٣، ٢٠٠٥م .